دعوة الى المعرفة

بقلم الاستاذ نبيه غطاس

ليست المعرفة وقفا على شعب او بلد واحد ، وليس لأمة من الأمم الحق في ان تفاخر غيرها — ان جاز التفاخر — بأنها اورثت الاجيال المعرفة المطلقة او انها صاحبة الفضل في ارساء المعرفة وصروحها . فالمعرفة بحر خضم تلتقي فيه الروافد من كل جهة : كل نهر ، صغر او كبر ، مصيره الى هذا البحر الخضم . ومن الانهار ما يصل الى البحر الجامع الكبير قويا هدارا ، ومنها ما يصل ساقية متواضعة ، ومنها النهر الذي لا يصل ماؤه الا بعد ان يتحول الى مجار مختلفة وأشكال متعددة .

كذلك المعرفة ، فالرصيد الذي لدينا منها اليوم هو حصيلة الازمنة التي مرت منذ فجر التاريخ ، هو المجموع التراكمي لمعارف الامم والشعوب ، الكبيرة منها والصغيرة ، الغنية والفقيرة ، المتمدنة والمتخلفة . والمعرفة ملك للجميع ، تتوارثها الاجيال وتتناقلها الايدي والعقول فتزيد عليها وتضاعفها .

يشبه افلاطون المعرفة بعين تفجر ماؤها رائقا سلسبيلا من ارض يكتنفها الشوك والعلّيق . فالظامىء الذي يمر بهذه العين لا يهمه ان يعرف مصدر الماء بقدر ما يهمه ان يشرب ويروي ظمأه . وبالامكان ان نزيد على هذا التشبيه قولنا ان المعرفة اليوم لم تعد مركزة في مكان ثابت معيّن ، ولا هي تنتظر «المسافر الظامىء» حتى ينتجعها : انها مائدة سخية متنقلة ، ديناميكية الحركة ، رحالة ، تجوب العالم كله من قاصيه الى دانيه .

لقد كانت اساليب النشر وطرق المواصلات والاعلام تتطور مع تطور المعرفة ، الامر الذي ساعد على نشرها بين اكبر مجموعة من سكان العالم . ويشاهد العصر الحضاري الحالي اروع تلك الاساليب والطرق وأنشطها وأكثرها فعالية . فهناك الكتب والاذاعة والصحف والتلفاز ووكالات الانباء والمؤسسات الثقافية ، الدولية والخاصة ، وغيرها . فالمعرفة اليوم ، حقا ، تهزأ بالمسافات وتتحدى الفروق بين الناس ، اجتماعية كانت او جنسية او طبقية .

غير ان هناك شروطا لانتشار المعرفة ، وأهمها هو توفر المناخ الفكري الملائم الذي تساعد على خلقه حرية الفكر ، وانتشار المدارس ، وتطوير اساليب النشر ، وحرية الانتقال ، وارتفاع مستوى المعيشة ، ورفع القيود بين الشعوب والبلدان . فهذه الشروط وغيرها ، منفردة او مجتمعة ، ضرورية بل حتمية لنشر المعرفة بين ابناء الشعب الواحد ، وبالتالي بين الشعوب الاخرى .

وبين المؤرخين من يزعم ان لانتشار المعرفة شرطا رئيسيا وهو ان تكون لدى شعب من الشعوب قابلية واستعداد للتعلم والمعرفة . غير ان هذا الرأي فيه الكثير من الجور والمغالاة والسطحية . ورأي هؤلاء يعني ان هذا الشعب او ذاك جاهل ومتخلف لانه لا يملك قابلية التعلم ولا يستطيع ان يتقبل المعرفة ... وفي هذا القول خطأ واضح : فالخطأ هو اولا التقرير القاطع بوجود معرفة مطلقة او جهل مطلق ، وتقرير كهذا يحتاج الى الكثير من البحث والجدل ، اذ ان هناك تداخلا غير منظور بين المعرفة والجهل في الشعب الواحد : فقد نجد في امة جاهلة معارف كامنة دفينة ممكنة التطوير ، كما نجد في امة متطورة خلايا من الجهل ورواسب خرافات تعد وصمة في جبين المعرفة . والخطأ الثاني هو ان نحسب — كما يسوقنا هذا «المنطق» — ان الشعب الجاهل سيظل جاهلا وان الشعب الذي حصل على شيء من المعرفة سيزيد منها ويضاعفها ويطورها كما وكيفا ، تشبها بالقول المعروف : «من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه»...

ويكشف التاريخ لنا خطأ هذا الرأي ويدلنا على انه لم تبق امة على حالها من حيث المعرفة والجهل ، وان عجلة التاريخ لم تقف عن الدوران يوما واحدا ، وأمامنا كتب التاريخ فلنراجعها . كانت المجتمعات وما زالت تتمازج وتختلط وتتبادل المعارف بحيث لم يعد بالامكان اليوم حصر المعرفة في قمقم ومنعها من الانتشار . ربما كان ذلك ممكنا في العصور الخوالي ، ايام

كانت المجتمعات مغلقة مقفلة ، وأيام كانت السدود المنيعة تقوم بين شعوب الارض وبلدانها . الا ان عصرنا الحاضر ازال معظم هذه السدود ، ان لم نقل جميعها ، وراحت المعارف تنتقل بحرية وبسرعة : فالكتاب الذي يعالج علما من العلوم يصل الى ملايين القراء في شتى انحاء الارض ليقرأوه باللغة الاصلية التي وضع بها او مترجما ، والراديو الذي تجوب امواجه الاثير ينقل المعارف بين الناس بلا حرج او قيود ... وسيطول الحديث بنا ولا شك لو رحنا نعدد الوسائل والطرق التي تنتقل بها المعارف في ارجاء الارض قاطبة . الا اننا نكتفي بالقول ان العالم اصبح صغيرا في ايامنا هذه ، فالمسافة التي كان المسافر منذ نصف قرن يجتازها في شهر من الزمن ذللتها وسائل النقل الحديثة ومكنت مسافر اليوم من اجتيازها في ساعات قلائل ، والاكتشاف العلمي الذي يقع في احدى الدول يذاع خبره في العالم كله بعد ايام قليلة . وهذا يعني انه لم يعد من السهل الاحتفاظ بعلم او نظرية او مبدأ على انه سر من الاسرار ، كما كان يحدث في الماضي .

وفي غمرة الجهود التي تبذل اليوم في سبيل المعرفة وتطويرها ونشرها – مع ما تنطوي عليه من تحد وسباق – نلمح بارقة امل تبشر بمستقبل باهر للمعرفة وللبشرية جمعاء .

وانتشار المعارف بين الناس والشعوب يساعد على اقامة العلاقات الطيبة بينها وازالة الاحقاد والضغائن ورفع السدود والحواجز : المعرفة بثقافات الشعوب الاخرى وعلومها وآدابها ، المعرفة بعاداتها وتقاليدها وتواريخها وأنماط معيشتها ، كل ذلك من شأنه ان يقرب بينها ويمكنها من العيش معا على وجه هذه الارض بحب وتفاهم وسلام ، كما جاء في قوله تعالى «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» .

ولنا في الحديث الشريف «اطلبوا العلم ولو في الصين» خير حافز للسعي وراء المعرفة . فطلب العلم انّى كان ومهما بعدت مصادره فرض على كل انسان يسعى لخير الجنس البشري وسعادته . ولم يعد لطالب العلم والمعرفة في عصرنا الحاضر عذر ، فالمائدة السخية ممدودة امامه وعليها من كل غذاء فكرة ولون ، و «العين» الصافية تتدفق ثرة رقراقة امام كل ظامىء .

وفي حديثنا عن سعادة الجنس البشري يجدر بنا ان نذكر سقراط ، فيلسوف اليونان الاكبر ، وتعريفه للسعادة بقوله : «ان السعادة هي المعرفة» .

اجل ان سعادة الفرد وسعادة الامة وسعادة الجنس البشري هي في المعرفة . وستظل نوافذ الانسانية تتفتح على آفاق ومجالات من المعرفة جديدة ، وستظل المعرفة اداة لاسعاد الانسان ووسيلة لنشر الرخاء والسلام والتفاهم بين ابناء العالم الواحد .

اختبر معلوماتك العامة

– ١ –

أ – في اي عام تم تتويج الملكة اليزابيث ملكة بريطانيا الحالية ؟

ب – في اي عام سقطت القسطنطينية في يد الاتراك ؟

ج – في اي عام ولد نابليون بونابرت ؟

– ٢ –

أ – من هو الفيزيائي الالماني الذي اكتشف القوانين الاساسية للمجاري الكهربائية ؟

ب – من هو الكيميائي الفرنسي الذي اكتشف البروم وأخرج كبريتات الصوديوم من ماء البحر ؟

ج – من هو مكتشف طريقة التلقيح ضد الامراض ؟

– ٣ –

أ – ما اسم ملكة اشور وبابل التي انشأت الحدائق المعلقة ؟

ب – ما اسم المستكشف البريطاني الذي قاد اول فرقة لصعود قمة افرست ؟

ج – ما اسم العالم الذي اكتشف الاحزمة الشعاعية حول الارض ؟

– ٤ –

أ – في اي عام اكتشف المجهر الالكتروني ؟

ب – متى اكتشف البنسلين ؟

ج – في اي عام بدأ استعمال التلفاز ؟

(الاجوبة صفحة ٤١)